(٢٤) محمد بن السماك[١]

ذكر قدوة المشايخ محمد بن السماك رحمه الله:

كان رحمه الله إمامًا في وقته، مقبولاً بين الأنام.

وله كلماتٌ عالية، وبياناتٌ شافية، ووعظٌ موفقٌ، وكانت فتوحُ المعروفِ الكرخي من كلماته.

وهارون الرشيد رحمه الله كان يَحترمه ويُكرمه، ويبالغ في ذلك، ويتواضعُ له، فقال له الشيخ رحمه الله: يا أميرَ المؤمنين، التواضعُ مع الشرفِ أشرفُ من الشرف الكبير.

وقال: أشرفُ التواضع أن لا ترى لنفسِكَ فضيلةً على أحدٍ.

وقال: كان الناس قبلنا دواءً يُستشفى بهم، واليوم كلُّهم ذو علّةٍ لا دواءَ لها. الطريقُ أن تستأنسَ بالله[٢]، وتجعلَ الكتابَ رفيقَكَ.

ومن كلامه أنه قال: الطمع رسنٌ ـ أي حبلٌ ـ معقودٌ في عنقك، وقيدٌ على رجلك، ارفع الحبلَ من العنق، وارمِ القيد من الرجل لتستريح.

و: كان الوعظُ ثقيلاً على الوعّاظ، كما أنَّ العملَ ثقيلٌ على العاملين؛ لأن الواعظ كان قليلاً، كما أنَّ العاملَ قليلٌ اليوم.

---

(١) هو محمد بن صبيح بن السماك، أبو العباس، وترجمته في:
الجرح والتعديل ٧/ ٢٩٠، الثقات لابن حبان ٩/ ٣٢، حلية الأولياء ٨/ ٢٠٣، تاريخ بغداد ٥/ ٣٦٨، الأنساب ٧/ ١٢٧، صفة الصفوة ٣/ ١٧٤، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٣٨٦، وفيات الأعيان ٤/ ٣٠١، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩١ (٨٤)، العبر ١/ ٢٨٧، مرآة الجنان ١/ ٣٩٣، الوافي بالوفيات ٣/ ١٥٨، ميزان الاعتدال ٣/ ٥٨٤، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦١، طبقات الصوفية للمناوي ١/ ٤٣٣، و٤/ ١٤٢، شذرات الذهب ١/ ٣٠٣.

(٢) في (أ): الطمع أن تستأنس بالله.

قال أحمد بن [أبي] الحواري رحمه الله: عُرِضَ لابن السمّاكِ مرضٌ، فأخذنا قارورتَهُ، نذهب بها إلى الطبيبِ، والطبيبُ كان نصرانيًّا، فالتقينا في الطريق برجلٍ حسنِ الهيئة، نظيفِ الثوب، طيّبِ الرائحة، جميلِ الوجه، قال لنا: إلى أين؟ قلنا: إلى الطبيب لنعرضَ عليه قارورةَ ابن السّماك. فقال: سبحان الله، تستعينون لوليِّ الله من عدوِّ الله تعالى، ارجعوا إلى ابن السّماك، وقولوا له: ضع يَدكَ على موضع العلّة، وقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] فرجعنا، وذكرنا له القضيةَ، ففعل وبرىء في الحال بعون الله تعالى. وقال: كان الشخص هو الخضر عليه السلام.

نقل أنّه لما حضرته الوفاة قال: إلهي، إني وإن كنتُ عاصيًا لك إلاّ أنك تعلمُ أنّي كُنتُ محبًّا لأهل الطاعة، فبقدرتِكَ اغفرْ لي بسببِ هذه المحبة.

نقل أنه قيل له: لِمَ لا تتزوّجُ؟ قال: لأنَّ لي شيطانًا، وآخرَ مع المرأة، فإذا اجتمعَ شيطانان في بيتي، فكيف يكون حالي حينئذ؟

نقل أنه لما دُفن رُئي في المنام، وسئل عنه: ما فعل الله بك؟ قال: أكرمني وأَعزّني[1]، لكن ليس لي عند الله مقدارٌ مثلَ من كان ذا أهل وعيالٍ، وأتعبَ نفسَه معهم لله تعالى ولرضائه رحمه الله.

* * *

(١) في (ب): أكرمني وخلع وأعزني.